تاريخ الإرسال: 2016/03/24 - تاريخ القبول للنشر: 2016/05/19 تاريخ النشر: 2016/06/28

نظرة علماء القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين للمرض والعلاج في بلدان المغرب

عبد القادر قوبع

جامعة الجلفة

ملخص: يتناول هذا المقال موقف الفقهاء والنخبة من ظاهرتي المرض والدواء وما يرتبط بهما من تصورات وخطاب وآليات واجتهادات لفهم ورصد مدى تطور الفكر الديني والاجتماعي لمجتمعات المغرب العربي. والإطار الزمني للدراسة هو القرنان التاسع عشر والعشرين الميلادي على امتداد بلاد المغرب العربي.

بعد أن اجتازت المدرسة التاريخية في بلدان المغرب مراحل معتبرة في دراستها للجوانب السياسية والعسكرية لهذه البلدان خلال الفترة الحديثة والمعاصرة، اتضحت أهمية الدراسة الاجتماعية لفهم المجتمعات المغاربية بصورة أكثر دقة وقربا. وفي صلب هذه الدراسة الاجتماعية تقف قضية موقف وتصور العلماء من قضايا عديدة، منها قضية المرض والعلاج، ومن المعروف أن العلماء في المفهوم الشرقي هم المسيطرون على العامة بفعل سيطرتهم على الفتوى التي ترتبط بالمصير الأخروي المقدس. أما أهمية قضية المرض والعلاج كموضوع اجتماعي فباعتبارها من القضايا الملازمة للإنسان في مختلف أحواله.

في هذه الدراسة سندرس نظرة وتصور هؤلاء العلماء (فقهاء. متصوفة...) للمرض والعلاج من خلال طبيعته وأسبابه وطرق العلاج وموقفهم من الطب الأوربي «المتفوق» والناشئ في منظومة مختلفة عن المنظومة المعتادة. كما ينبغي التنبيه إلى أن هذه الدراسة هي تاريخية وصفية أكثر منها دراسة اجتماعية، وإطارها الزمني يمتد خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين.

1- الأمراض والأوبئة في بلاد المغرب:

لم تكد بلدان المغرب (المغرب الأقصى. الجزائر. تونس، ليبيا) تخلو من مرض أو وباء خلال القرون الحديثة، وذلك لعوامل كثيرة عل رأسها تزايد عدد السكان ومناطق استقرارهم (المدن) وتطور الأمراض وكثافة العلاقات الإنسانية بفضل تشعب وتطور وسائل المواصلات خاصة البحرية و توسع العلاقات الديبلوماسية والتجارية. ويكفي أن نشير هنا إلى أخطر هذه الأمراض وأشهرها في ذاكرة هذه البلدان.

ففي المغرب الأقصى نجد طاعون 1818-1820 الذي انطلق من طنجة وخلّف فيها وحدها مقتل 2214 شخصا ليعم باقي أرجاء المغرب[1]. ثم الكوليرا المعروفة بعدة أسماء: «بوقليب»،»الريح الأصفر» منذ 1834 وخلال 1854-1855 وبين 1859 و 1860 وكذلك في عام 1867، إضافة إلى مرض التيفوئيد عام 1868

والذي عاود الظهور عام 1878 مصحوبا بالكوليرا المعروفة بالآسيوية. حيث قضى هذا التيفوئيد على ثلث السكان فيها. وتجددت الكوليرا كذلك عامي 1896–1895 . وهذا دون تطرق لأمراض أخرى كالالتهاب الرئوي والحمى المخاطية والحصبة وفقر الدم...[2]

أما في الجزائر فنذكر طاعون 1816 الذي استمر إلى غاية 1822 وانتشر في مدينة الجزائر وضواحيها ووهران ومعسكر وقسنطينة وبسكرة وبوسعادة وأولاد جلال...ويكفي أن نعرف بأن عدد قتلاه في سنة واحدة في مدينة الجزائر قد بلغ 7951 (سنة 1818).[3]

كما ظهرت بها الكوليرا عام 1832 ثم الكوليرا الآسيوية 1851 والجدري والتيفوس والحمى الصفراء الاسبانية عام 1870(4). ومثل الجدري الذي ظهر بعنابة 1851، والبيض 1857، وعين تموشنت 1862، وتلمسان عام 1885.[5]

أما في تونس فتحتفظ الوثائق والروايات بأخبار طاعون شوال 1233هـ الموافق لعام 1818 والذي استمر لعامين وكان عدد قتلاه يتجاوز الألف شخص اليوم الواحد أحيانا. وكذلك كوليرا عام 1266هـ الموافق لعامي 1850–1849 والتي عرفت بالريح الأصفر، وكان عدد قتلاها يصل المئتين في كل يوم [6]. وتجددت الكوليرا عام 1272هـ الموافق لعام 1856 غير أنها لم تدم طويلا.[7]

2– أوصاف المرض:

لم يتمكن عالم القرون الحديثة من فهم طبيعة كثير من الأمراض إلا بعد تطور أجهزة الكشف (المجهر) فبالنسبة لمرض الكوليرا كان ذلك منذ عام 1884 وهو العام الذي تمكن فيه العالم كوخ (koch) من التعرف على العامل المسبب لها وهو «ضمة الهيضة».

أما بالنسبة للعلماء المسلمين فسنبدأ بوصف المرض والدواء ثم نتطرق إلى تعليل المرض ومشروعية العلاج...فكتب العربي بن عبد القادر المشرفي[8] واصفا مرض الكوليرا منتصف القرن التاسع عشر بقوله:»... فكان موته موت بغتة وفجأة، كم من واحد مات فيه بالحيرة والدهشة حيث يرى الإنسان أخاه يمشي صحيحا فيسقط ميتا، وقلّ من جاوز في تلك المدة أربعة وعشرين ساعة...وبنفس ما ينقاس به الإنسان فيتغير حاله وتشوه خلقته وتقع اللكنة في لسانه فيلجلج مقاله وتزنجر أظفار يديه ورجليه كأنها صبغت بنيلة...».[9]

ومن جهته يصفها عبد الرحمن الفاسي على النحو التالي:»...فمنهم من يصيبه وجع بقلبه وتنقطع معه أمعاؤه وتبرد ذاته وتغور عيناه ويطق بطنه من أعلاه وأسفله ويمكث ساعة أو ساعتين وينقضي نحبه. ومن الناس من يبدء(كذا) الألم والبرد الموصوف من رأسه، فإذا وصل إلى قلبه مات، ومنهم من يبدؤه الألم من رجله...».[10]

وبالنسبة للطاعون يذكر المشرفي الطاعون الدملي الذي يصفه بأنه يظهر دملة كحبة الجوز في إبط المصاب ويسود ما حولها أو يحمر، ثم يبدأ المصاب في القيء وشرب الماء والإسهال كريه الرائحة.[11]

وعموما نجد هذه الأوصاف تكرر في مختلف القرون.

3– العلة والدواء والعلاج، أسباب وطرق:

من الضروري التنبيه إلى أن العالم الإسلامي وبتأثير من تخلفه عن الركب الحضاري منذ عصر ما بعد الموحدين –كما كان يطيب للمفكر الجزائري مالك بن نبي التصنيف وفقه– فقَدَ طبقة الأطباء الباحثين (العقلانيين) وحل محلهم خليط من الرجال الصالحين (الأولياء) والمرابطين والمتطببين الشعبيين (التقليديين) ،الذين عادة ما يكونون أميين وطاعنين في السن ، والسحرة والدجاجلة وبعض الهواة الذين سدوا هذا الفراغ الخطير كل بما يملك ويعتقد أنه مناسب.

– الطب الروحي:

يُعزى هذا الطب إلى عاملين: العامل الصوفي الذي يعتقد في قدرة العباد الصالحين على شفاء الناس وتخفيف أوجاعهم بكرامة من اللّه لقاء صلاحهم وتقواهم، فهي تستمد مشروعيتها من الحجج الدينية كالكرامة. أما العامل الثاني فهو سيطرة الخرافة على الذهن الجمعي حيث صار من الصعوبة بمكان زعزعة هذه «القناعات» خاصة في ظل فقدان البديل. فبالنسبة للعامل الأول يمكن الاكتفاء ببعض الأمثلة فقط لكثرتها وتكررها في كل من المغرب الأقصى و الجزائر وتونس...

ففي المغرب الأقصى مثلا عُرف الولي سيدي شكدل (دفين بني عمير) بعلاجه أمراض الحنجرة، والولي سيدي التونسي (دفين الشاوية) عُرف بعلاجه الأمراض الجلدية والزهري...[12]

وفي الجزائر اشتهرت فرقة التواهر من مرابطي منطقة القبائل بكتابة الحروز (الحجاب) التي تشفي من أمراض الكوليرا والكلب...[13]

وقد فسّر سكان مدينة الجزائر إصابة عدد من الأوربيين بوباء الكوليرا عام 1867 باعتدائهم على ضريح الولي الصالح سيدي يعقوب (قرب باب الواد) بعدما قاموا بإزالته لتوسيع طريق الجزائر تيبازة، خاصة أنهم كانوا يزورون هذا الضريح كل يوم اثنين في فترة الوباء.[14]

أمّا العلاجات الروحية المشهورة فمنها تناول المريض كمية من التراب المحيط بمقام الولي أو ضريحه مبللا في الماء أو البخور أو أعشاب مقدمة له من الولي، وأحيانا حك جلد المريض بقطع من أثاث الضريح أو أستاره أو جدرانه، والمريض في كل ذلك مؤمن إيمانا راسخا بفعالية هذا الدواء.

وقد كتب المستشرق الفرنسي ألفريد بيل متعجبا من إقبال المرضى على الولي مولاي أحمد الوزاني بمكناس عام 1912:» رأيت مرضى رجالا ونساء خارجين من استشارة الطبيب الفرنسي بالعيادة الأهلية يتوقفون قرب مولاي أحمد يلتمسون الشفاء منه، يتناولون قليلا من التراب بالقرب منه مفضلين ذلك المتشبِّع ببوله الطاهر حيث يحملونه كطلسم أو يطْلُون منه بعناية مصدر الألم الذي يعجز الطبيب الفرنسي بإرادته على معالجته بسرعة».[15]

واقترح أحد الفقهاء التونسيين وهو مصطفى بن محمد بن حسين بيرم لمواجهة طاعون 1850 أن يجتمع أربعون شريفا ممن يشتركون في حملهم اسم محمد للاعتكاف في جامع الزيتونة من الصباح إلى الظهر يقرؤون سورة «يس» أربعين مرة ويبتهلون إلى اللّه تعالى بدعوات كتبها هو خصيصا للمناسبة اقتباسا من كتب وأذكار الصالحين. ومن الأسماء التي حضرت محمد بن علي الشريف شيخ الطريقة العيساوية ومحمد التومي شيخ الطريقة القادرية ومحمد النابلي شيخ طريقة سيدي عبد السلام (المشيشية). ومن الملاحظ أن شدة الطاعون قد خفت بعد هذا الاعتكاف كما يروي المؤرخ التونسي المعاصر للحادثة ابن أبي الضياف.[16]

أما بالنسبة للخرافات والسحر فالأمثلة عديدة، ففي منطقة البليدة (الجزائر) كانت تكتب التمائم (الأحراز أو الحروز: جمع حرز) للوقاية من جان يهودي أو مسيحي اسمه «سيدي جاعتو»، حيث يتم طرده بالبخور المكون من الجاوي والزعتر في الأماكن التي ينبع منها الماء، وذلك للوقاية من خطره، فهو المسؤول عن الأمراض العقلية والشلل والبكم. كما كان العلاج يتم أحيانا بإقامة»النُّشرة» التي تعني تقديم قربان (حيوان) في مكان وتوقيت محددين بهدف نشر وإزالة مرض المصاب.

وفيما يتعلق بالسحر فمن المعروف كثرة انتشاره وطابع السرية الذي يحيط به، فتذكر المصادر مثلا أن أحد السحرة الجزائريين استعمل عام 1827 مرآة الحبر السحري المعروفة بدرب المندل لعلاج القنصل الانجليزي (SALT) في الجزائر، إضافة إلى استعمال البخور المتكون من الجاوي والكصبر. كما كان يعالج الأطفال بواسطة رسم على اليد اليمنى يتكون من مربع مكتوبة فيه أرقام عربية وبعدها يقوم بصب الحبر فوقها ويطلب من الطفل المصاب مشاهدتها والتعبير عن انطباعاته على الشكل الجديد.[17]

– الطب المادي:

كانت للطب الشعبي حصة الأسد في التطبيب، وعادة ما يكون مرتبطا بالمرابطين والصلحاء الأحياء منهم أيضا، ونذكر مثال المرابط سيدي محمد زروق بالجزائر الذي كان يوصي للوقاية من مرض الطاعون بخليط طبي مكون من المر المكاوي والرند والصبر والزعفران يتناوله المريض كل صباح. ومثال أحد المرابطين الذي كان يقترح على مرضاه وضع البصل الإسباني المعروف بالسطل(SELLE) فوق الدملة حتى يتم امتصاص القيح ثم وضع خليط من الزبدة والعسل عليها.[18]

ولم يجد باي تونس عام 1852 بُدّا من المزج بين علاجين مختلفين لإصابته بالفالج (الشلل النصفي): علاج أوربي أشرف عليه طبيبه الايطالي كوادريني وطبيبان آخران هما إبراهيم لمبروزو وكستل نوفو، وذلك بواسطة الدلك بالخردل وقطع الصوف، أما العلاج الثاني الذي لجأ إليه الباي فهو التبرك بالولي المجذوب عمر عبادة (دفين القيروان) حيث لبس هذا الباي جبته وبلغته (حذاءه) طمعا في الشفاء، وذلك لأن: «للباي اعتقاد فيه».[19]

4– تضاد الآراء والفتاوي في مواجهة الأوبئة:

رغم ما عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون من احتكاك حضاري بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي الأوربي وتقارب في مجالات كثيرة إلا أن المجال الطبي تأخر إلى بداية القرن العشرين في أحسن الأحوال بفعل عوامل عديدة متشابكة. وإذا كانت أوربا قد استفادت من التجارب القاسية التي واجهت بها أوبئة الطاعون والكوليرا فإن العالم الإسلامي –ومنه منطقة المغرب– بقيت بعيدة عن فهم هذه الأوبئة ومن ثَم التصدي لها، بل ظلت هذه الأوبئة هي المسؤولة عن الاستنزاف الحاصل في مجال الطاقات العلمية والبشرية والحيوانية بعد كل وباء. وهنا نتساءل عن موقف العلماء الذين يملكون زمام الفتاوي التي لها تأثير واسع على الرأي العام الإسلامي من هذه الأوبئة والطرق الأوربية للتصدي لها.[20]

وسنكتفي ببعض النماذج النخبوية (الدينية) الأكثر شهرة من مختلف بلدان المغرب من خلال مقولاتها وفتاويها، مع ملاحظة أن نقطة الاختلاف الأكبر هي في مدى شرعية نظام الحجر الصحي المعروف بالكرنتينة(Quarantaine) في الأدبيات الطبية، والتي تعني عزل المصابين بالوباء (الطاعون أو الكوليرا) عن غيرهم من الأصحاء، أما قضية سبب الوباء فيبدو أنها لم تكن غير أمر ثانوي في النقاش الفكري (الديني)

السائد والمتكرر.

1-4- موقف شيوخ الصوفية:

- أحمد بن عجيبة:

برزت رسالة ابن عجيبة[21] في أتون طاعون تطوان عامي 1800-1798 الذي أسفر عن نتائج وخيمة رغم الإجراءات التي اتخذتها سلطات المخزن كفرض الحجر الصحي على السفن والموانئ وغلق أبواب المدن... وهذا بتدعيم من علماء الدين. لكن ابن عجيبة وقف ضد هذا القرار بحجج دينية على رأسها أن كل شيء سابق في القدر، والأجل مكتوب محدد، وأن ما هو مقدر ليس مصروفا أبدا، وهدف ابن عجيبة من رسالته ليس تنوير وطمأنة العامة المذعورة بل الرد على العلماء الذين أجازوا تطبيق نظام الحجر الصحي ثم أجازوا للناس الفرار من مدينة تطوان خشية إصابتهم بهذا الوباء. ولم يغادر ابن عجيبة مدينته الموبوءة تطوان وصبر على فقد أبنائه الأربعة في هذا الطاعون، وكتب عن دافع تأليفه رسالته:»...حملني عليه أني رأيت كثيرا ممن يشار إليه بالعلم والعقل قد ضلّ وأضل وجعل يدافع المقادير بما يقدر من الأسباب والحيل...» مبررا رأيه بقوله:»...إن الموت والحياة بيد اللّه و لا تأثير لشيء من الأسباب في الموت وغيرها بل الأمر للّه...».

ورسالة ابن عجيبة لا تبحث في علاج الداء إطلاقا، بل تبحث عن سبل الانتقال إلى اللّه في أحسن حال (العبادة والمغفرة)، فاقتراحه كثرة الدعاء والصلاة على النبي (ص) زمن الوباء هو لتحصيل المغفرة والرحمة لا لطلب طول العمر والحفظ من الوباء. بل يوصي الناس بما أوصاه به شيخه العربي الدرقاوي بالتزام الطهارة وصلاة ركعتين حال ظهور الوباء.

ولا يكتفي ابن عجيبة بالحجج الدينية (الغيبية) لإبطال عامل العدوى بهدف إقناع خصومه بل يلجأ إلى المحسوس المشاهد، فيذكر أن كثيرا من الذين قاموا بتغسيل وتكفين موتى الوباء لم يصابوا بشيء في مناطق مختلفة كتطوان وطنجة وسلا والرباط...[22]، ومن بين ردوده على خصومه مؤاخذته لهم على تفسير الحديث الشريف الوارد في النهي عن دخول الأرض الموبوءة حيث يوضح أن النهي مقتصر على ضعاف النفوس (الإيمان) خشية أن يتوهموا بأن الوباء هو سبب موتهم إذ ربما تصادف موتهم مع دخولهم هذه الأرض فيعتقد الناس من ورائهم أنهم لو لم يأتوا هذه الأرض ما ماتوا، وهذا ما يؤدي بهم إلى الشرك. بل يدعو ابن عجيبة كل مسلم إلى اختبار إيمانه ويقينه وتوكله على اللّه بالتوجه إلى مواطن ظهور الوباء حتى يقتنع بأنه لا يضر إلا بإذن اللّه وحده.[23]

- إبراهيم الرياحي [24]:

يختلف موقف الشيخ إبراهيم الرياحي عن الموقف الصوفي العام في أنه يسعى للشفاء ورفع الوباء طلبا للسلامة الجسدية رغم أن علاجه المقترح كان روحيا فقط، حيث استغل فرصة حلول ذكرى المولد النبوي لدعوة الناس للاجتماع في المسجد وتلاوة أدعية وتوسل لرفع طاعون 1233هـ (موافق 1818)، وذلك بالإكثار من قراءة آيتين هما قوله تعالى:» سيجعل اللّه بعد عسر يسرا» وقوله تعالى: « فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا» بعدد هو ستة وستون مرة على شكل ورد[25]. كما أن له قصيدة في التوسل تعكس لنا نقاط هامة تتعلق بنظرته للوباء وأسبابه وطبيعته والعلاج...يمكن اختصارها في العناصر التالية:

- تفضيل العفو والمغفرة بلا محنة (دون تسليط عقاب دنيوي كالوباء).

– سبب الوباء ذنوب العباد وغضب الله عليهم.

– طبيعة الوباء هي طعن من الجن (الأعداء). وهي إشارة إلى الحديث النبوي الشريف «الطاعون شهادة لأمتي ووخز أعدائكم من الجن يخرج في الإباض والمراق، الفار منه كالفار من الزحف، والصابر فيه كالمجاهد في سبيل الله».[26]

– الشفاء من البلاء هو من الله وحده. أي أن الإجراءات المتخذة هي مجرد أسباب قد لا تؤدي دائما إلى الشفاء.

– الوباء مطهرة ورحمة. وهي إشارة إلى تطهير الذنوب والشهادة الواردة في الحديث الشريف:» الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه»[27]. وفي رواية سألت أم المؤمنين عائشةُ النبيَ (ص) عن الطاعون فقال:» كان عذابا يبعثه الله على من كان قبلكم فجعله رحمة للمسلمين ما من عبد يكون في بلد فيكون فيه فيمكث صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد».[28]

ونقتطف الأبيات التالية فقط من قصيدة الرياحي نظرا لطولها:

يا إلهي وأنت نعم اللجاء	عافنا واشفنا فمنك الشفاء
إن هذا الطاعون نار تلظى	لقلوب التوحيد منها اصطلاء
كم جموع تمزقت وكبود	وسرور طارت به العنقاء
ذاك من ذنبنا العظيم كما قد	جاءنا عن نبينا الأنباء
يغضب الله بالذنوب فتسطو	حين تطغى بوخزها الأعداء
هو لا شك رحمة غير أنّا	يا قوي عن حملها ضعفاء
كم وكم رحمة لديك وتعطيها	بلا محنة إذا ما تشاء
ضاق أمر الورى فأنت المرجّى	وسطا ذا الوبا وعزّ الدواء[29]

2-4- موقف الفقيه الجزائري العربي المشرفي:

رغم غلبة الموسوعية على الفقيه الجزائري المشرفي الذي كتب في الأدب والتاريخ والطب والفقه...وغلبة روح العصر عليه والتي تظهر جلية في كتاباته (معارضة التحديث الأوربي) إلا أنه لم يتبنى الطرح الصوفي السائد لدى الفقهاء آنذاك. ويهمنا من مؤلفاته رسالته:» أقوال المطاعين في الطعن والطواعين» التي توجد محفوظة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 2154 والتي قام الباحث المغربي الحسين الفرقان بتحقيقها عام 2003. ومن المفيد التعرف على الخطة التي سار عليها المشرفي في رسالته هذه:

– فصل أول: تعريف الوباء لغة واصطلاحا مشيرا إلى زمن ظهوره.

– فصل ثان: ذكر الأمكنة التي لا يصلها.

– فصل ثالث: الآيات والأحاديث التي تتعلق بالوباء وحكم من يموت به ومراتبهم عند الله تعالى.

– فصل رابع: العلاج المادي والعلاج بالتمائم وبالصدقات.

– فصل خامس: خصصه للحجر الصحي (الكرنتينة).[30]

وخلاصة رأي المشرفي هو أن الطاعون طعنة من الجن ولا يمكن للأطباء فهم ذلك وعلاجه فهم يقتصرون على أعراضه فقط. أما في نفيه للعدوى فيعتمد على الحديث الشريف:»لا عدوى ولا طيرة «، وكذلك على حجج تجريبية وملاحظات تلغي العدوى دون أن تنتبه لعامل المناعة، فيذكر المشرفي بأنه شاهد بنفسه الأعوام الشديدة التي تجتمع فيها الأوبئة والكوارث والقتلى ويقوم الناس بالتغسيل والتكفين والدفن دون أن يصابوا أو يموتوا وقتها، ويكتب في موضع آخر: «...ونجد من أصيب به يقوم عليه من أهله وخاصته مَن مخالطتهم له أشد من مخالطة الأجانب قطعا والكثير منهم سالم، فمن شهد بأن ذلك سببا في أذى المخالطة فهو مكابر».

وعارض المشرفي «الكرنتينة» حيث كتب عنها لما تعرض لها في مصر في طريقه إلى الحج عام 1841 :» نعوذ بالله من هذا الاعتقاد فلا يموت ميت دون أجله».[31]

3-4- موقف أحمد الناصري[32]:

وفي نفس هذا السياق جاءت فتاوى أبي العباس أحمد بن خالد الناصري الذي رغم معاصرته للتطور الطبي الحاصل واقتناع الكثير بجدوى الكرنتينة في الحد من انتشار الوباء إلا انه أفتى بحرمتها وعدم مشروعيتها، فكتب بأن حكمها الشرعي مرتبط بالمصلحة ومصلحتها غير أكيدة فهي مشكوكة أو منعدمة إذ لا تنجح دائما في حماية الناس من الوباء، كما أنه في حال الإصابة يمس اعتقاد المسلم وتسليمه بالقدر، إضافة إلى ما فيها من اقتداء بالكفار وتعظيمهم بنسبة التفوق الطبي لهم، وأجمل رأيه بقوله: « فالحاصل أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد كل منها محقق، فتعيّن القول بحرمتها وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة لا تعوز البصير...».[33]

ولكن الناصري لا يعارض العلاج بالدواء فهو يعارض نظام الكرنتينة فقط أي أنه يرفض الإقرار بحقيقة العدوى فقط.

وقد أيد الناصريَ في رأيه قاضي مراكش عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلاوي[34] بقوله «...وأما حكم الكرنتينة فهو ما ذكرتم من الخطر وبه أقول، لما فيه من الفرار من القضاء مع المفاسد العظيمة التي لا تفي بها مصلحتها على فرض تحققها أو غلبة ظن حصولها سيما وقد انتفيا بعد التجربة المتكررة في الجهات المتعددة...».[35]

4-4- اختلاف علماء تونس:

أدى طاعون 1818 إلى اختلاف شديد بين الفقهاء خاصة مع الاختلاف المذهبي بين الأحناف والمالكية، ورغم أن البايات سلكوا وطبقوا نظام الحجر الصحي[36] دون الالتزام بآراء الفقهاء إلا أن النقاش الفكري السائد قد انتشر وامتد خارج تونس، فالناصري يذكر في كتابه «الاستقصا» بأن رفاعة رافع الطهطاوي قد ذكر في أحد كتبه بأن خلافا فكريا نشأ بين فقهاء تونس حول مشروعية الأخذ بنظام الحجر الصحي، فنلاحظ هنا كيف امتد هذا الخلاف إلى مصر والمغرب...[37]

– موقف محمد بيرم الثالث[38]:

في الحقيقة لا يخرج موقف محمد بيرم الثالث عن الرأي القديم لعمر بن الخطاب القائل بجواز الوقاية من الطاعون بالفرار منه عملا بالحديث الشريف:» فر من المجذوم فرارك من الأسد».[39]

فكتب بيرم الثالث رسالة في جواز تطبيق نظام الحجر الصحي. وقد تكرر هذا الموقف عام 1850 مع الفقيه مصطفى خزنه دار وأبو عبد الله محمد الطيب الرياحي(40) اللذين أجازا الوقاية من المرض.[41]

– رأي عبد الله محمد بن سليمان المناعي[42]:

كتب المناعي رسالة سماها: « تحفة المؤمنين ومرشدة الضالين»، ومحتواها في الحقيقة لا يخرج عن تكرار موقف الصحابي أبي عبيدة بن الجراح الذي عارض به رأي عمر بن الخطاب واعتماده كذلك على الحديث الشريف:»لا عدوى ولا طيرة» أي وجوب التسليم بالقدر فلا ينفع حذر مع قدر، ويبرر المناعي موقفه بأن الفرار من المنطقة الموبوءة فضلا عن مخالفته للحديث الشريف (الأمر الشرعي)، فهو يؤدي إلى ترك صلاة الجماعة وقطع صلة الأرحام بترك المصابين لوحدهم في مواجهة المرض. فهو بين موقفين فقهيين موقف توفيقي مثله الشيخ زروق وعلماء المالكية وموقف متشدد سائد لدى الفقهاء الشافعية ابن حجر العسقلاني والسيوطي. ومن المفاجئ أن المناعي قد مال الى الرأي الفقهي المتشدد وترك المذهب المالكي، وتفسير ذلك يعود الى عامل موضوعي خارجي هو رفض المظاهر الاجتماعية الطارئة بفعل الحضور المسيحي الأجنبي الغربي في تونس.[43]

وهنا نلاحظ أن فكرة المناعة وانتقال الميكروب المسبب للوباء كانت مفاهيم غائبة تماما.

ومن الملاحظ أيضا أن العامة في تونس كانت تميل إلى هذا الرأي، ففي جنازة العالم الطاهر بن مسعود في ديسمبر 1818 حيث اشتداد الطاعون، يروي المؤرخ ابن أبي الضياف أن الناس قد خرجوا :»...بحيث لم يتخلف عن الجنازة من المسلمين إلا من أقعده عذر البدن...». وهو ما يعكس درجة اللامبالاة بالعدوى رغم أنه أدى إلى وفاة ثلث سكان تونس.[44]

5–4– موقف محمد بن مصطفى الكمال الجزائري:

كتب إمام مسجد سفير بمدينة الجزائر والمدرس بالمدرسة الإسلامية الفرنسية بها محمد بن مصطفى الكمال رسالة فقهية حول موضوع الحجر الصحي، أجاز فيها بحجج شرعية طرق الوقاية من الداء، سمّاها:» تنوير الأذهان في الحث على التحرز وحفظ الأبدان» وقام بطبعها في عام 1896. واعترف فيها بأن عددا من البلدان الإسلامية قد سبقت إلى تطبيق الحجر الصحي مثل الدولة العثمانية ومصر والحجاز، ومن الملفت أنه عاد إلى الدفاع عن جواز الاستعانة بالطبيب غير المسلم عملا بالقاعدة الفقهية « الضرورات تبيح المحظورات».[45]

ولم يكن مصطفى الكمال سبّاقا في هذا فقد سبقه بعقود كثيرة منذ بداية القرن التاسع عشر المفكر والكاتب الجزائري حمدان بن عثمان خوجة(1775–1840) لمّا كتب كتابه: «إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء».[46]

5– القرن العشرون الميلادي، مراجعة المواقف:

شهد القرنان التاسع عشر والعشرون الميلاديين أهم الأحداث التي هزّت المنظومة الفكرية الشرقية

بعدما استطاعت أن تهز المنظومة العسكرية والسياسية للبلاد الإسلامية. ومن مظاهر هذا الاهتزاز الذي بدا شديدا خلال القرن العشرين مقارنة بالقرن الذي سبقه، إقبال العامة على الطب الأوربي وتصديق مقولاته وطرقه.

صحيح أن كثيرا من سلاطين المغرب وبايات تونس وبايات الجزائر قد اتخذوا لأنفسهم أطباء أوربيين ، وكذلك فعل الأمير عبد القادر الرجل الفقيه، ولكن موقف العامة خلال القرن التاسع عشر كان موقفا متشددا في رفضه للآخر الأوربي تعليمه وطبه وحضارته ككل. ربما يكون هذا الموقف مبررا برفض الاحتلال، لكن الأمر هنا يتجاوز التبرير السياسي للاحتلال إلى تبريرات دينية مسبقة ضد الإقبال على التلقيح باعتباره أكثر طرق العلاج فعالية وإثارة للجدل، من هذه الاعتراضات مثلا أن التلقيح هو طقس ديني خاص بالمسيحيين يقابله عند المسلمين الختان، أو أن سائل اللقاح هو سائل مستخرج من الكفار أو أنه دم كافر سيؤدي إلى اختلاط الأنساب أو أنه عبارة عن مادة متقيحة (نجاسة)، كما كان في اعتقاد العامة أن الوقاية من المرض غير الموجود (غير المشاهد) هي وقاية من شيء مجهول غيبي وهو ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية.[47]

هناك إحدى القصص الشعبية التي دعمتها بعض الزوايا بسكوتها أو بصريح تحريضها واحتفظ بها المخيال الشعبي في الجزائر والتي لم تتوقف عند حد إفشال عملية التطعيم بل استطاعت إثارة الثورات والتمردات، ملخص هذه القصة هو أن حوارا جرى بين إمبراطور الفرنسيين وزوجته حول أن عدد المسلمين (الجزائريين) في نمو متزايد سيؤدي إلى قلب نظام الحكم ضده لذلك اقترحت عليه الآتي:» مُر بتلقيح كل أبناء المسلمين وبهذه الطريقة سيصبحون عقيمين وسيتلاشى عرقهم شيئا فشيئا وبالمقابل سيتنامى أثناء ذلك عرق الفرنسيين «.[48]

ويناقش أحد النداءات الطبية التي قام بها الطبيب برتران على صفحات جريدة « المبشر» لسان السلطات الفرنسية في الجزائر، في عدد 30 مارس 1949 (أثناء وباء الجدري) قضية مشروعية الوقاية و التداوي، إن الطبيب – في هذا الموقف– يذكر المسلمين بحث عقيدتهم الإسلامية لهم على العلاج ويطمئنهم بأن الدولة العثمانية ومصر والحجاز قامت بتطبيق التلقيح ضد مرض الجدري ويضيف قائلا:»...هذا العلاج الذي أعطته بركة اللّه للناس قصد إنقاذهم من الآفة...إننا نريد هدايتكم بالكلام ولكن بالأعمال أيضا...ومنذ أن أوحى اللّه إلينا بواحدة من نعمه الرائعة أصبحت هذه النسبة تقدر اليوم بحالة وفاة واحدة من بين عشرة مصابين...». وهو يتفق مع المسلمين في أن المرض هو قدر محتم على الناس لكن الدواء هو أيضا نجدة من اللّه لعباده لأنه –سبحانه– رحيم بهم، وهذا هو صلب الاعتقاد الإسلامي، يقول الطبيب برتران:»...في النهاية فكروا بأنكم تدعون دائما بنعمة اللّه وإحسانه ومساعدته وستكونون مذنبين إن لم تنتفعوا من كل النجدات التي يبعث بها إليكم...».[49]

وقد ساهم عجز المرابطين والطُّلبة في تخفيف معاناة المصابين مثلما ساهم تناقص عدد وفيات المصابين في اقتناع كثير من العامة بجدوى العلاج المقدم من الأوربيين (الكفار). خاصة لما لاحظوا إقبال الأوربيين واليهود على مراكز الاستشفاء الأوربية. ولذلك لم تعد هذه القضية مطروحة خلال القرن العشرين الميلادي.

من خلال استعراضنا لنظرة العلماء في بلدان المغرب لقضية المرض والعلاج خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين يمكن استخلاص عدة نتائج.

– تأييد وسيطرة الموقف القديم المتكرر عبر القرون الإسلامية الأخيرة والملتزم بالحديث الشريف الرافض للعدوى، بل وتأويل معاني الأحاديث النبوية الشريفة إلى ظاهرة جديدة هي «تمجيد الموت بالطاعون»، في ظل تراجع الاهتمام باجتهاد الخليفة عمر بن الخطاب الرافض دخول المنطقة الموبوءة.

– التفسير المغلوط للقدرية الذي أدى إلى الاستسلام التام لمختلف الأوبئة وتركها تستنزف الطاقات البشرية والحيوانية للبلاد في كل مرة.

– مساهمة الفهم الخاطئ للتصوف في تحريف المعنى الصحيح للتوكل، حيث أدت هذه الروح إلى إحجام الكثير عن العلاج وتحمل الألم بكرامة دون شكوى أو بحث عن علاج مادي. كما رأينا عند ابن عجيبة والرياحي.

– تعطيل اجتهادات وبحوث الأطباء والحكام للتصدي لهذه الأمراض وفهم أسبابها وطبيعتها.

– إعراض العامة عن اجتهادات العلماء (والمفكرين والأطباء) المنادية بضرورة الاستفادة من الطب الغربي (الأوربي)، وعزز هذا الإعراض تزامن هذه الدعوات مع ازدياد التغلغل والاحتلال الأوربي للعالم الإسلامي.

– حالة الجهل والتخلف الفكري والخرافة المسيطرة على قسم كبير من العامة التي أصرت على اللجوء إلى الطب الشعبي والشعوذة بدل البحث عن وسائل الطب الحديث (العقلاني).

الهوامش والإحالات:

1– محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1992، ص 113

2– نفسه، ص 324

3– فلة موساوي القشاعي، الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي 1815– 1871، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة الجزائر، 2004–2003، ص 304

4– نفسه، ص 138

5– ايفون تيران، المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة (المدارس والممارسات الطبية والدين) 1830– 1880، تر محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2007، ص ص 344، 346

6– أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد 2، الجزء 3، الدار العربية للكتاب، تونس، دط، 1999، ص 128 . ص 133

7– نفسه، مج 2، ج 4، ص 211

8– العربي المشرفي: ولد حوالي 1804 –1805 بمعسكر، درس بمعسكر على والده الفقيه وتلمسان ووهران وفاس، هاجر الى المغرب الاقصى بعد فشل مقاومة الامير عبد القادر، ترك مؤلفات كثيرة متنوعة أهمها: أقوال المطاعين في الطعن والطواعين. الفتح والتيسيير في شرح منظومة غوثية البدر المنير، حاشية على شرح المكودي. درء الشقاوة عن السادات درقاوة. الحسام الجعفري...، جواب على سؤال السند...الرسالة في أهل البصبور الحثالة، ورقات في رواج السكة بالزيادة، الخ. توفي 1895. للمزيد انظر:

– عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2012

9- البزاز، مرجع سابق، ص 171

10- نفسه، ص 172

11- نفسه، ص 91

12- ديل إيكلمان. الإسلام في المغرب، ج 2، تر: محمد أعفيف، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط 1، 1991، ص 51

13- القشاعي، مرجع سابق، ص 193

14- نفسه، ص 191

15- دانيال ريفي. الطب الاستعماري أداة استبدادية متسامحة لمراقبة السكان، تعريب عزوز هيشور، أمل، ع 6، السنة الثانية، 1995، ص 124

16- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4، ص ص 133، 134

17- القشاعي، مرجع سابق، ص 193 وص 201

18- نفسه، ص 190

19- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4، ص ص 140، 141

20- انظر تقديم المؤرخ جرمان عياش لكتاب محمد الأمين البزاز. مرجع سابق، ص ص 8، 9

21- أحمد بن عجيبة: من كبار صوفية المغرب الأقصى، أخذ التصوف عن محمد بوزيد الغماري والشيخ الهربي الدرقاوي، له تآليف عديدة في التصوف، وتفسير للقرءان الكريم جمع فيه ما قاله علماء الظاهر والباطن. توفي عام 1225هـ. انظر:

- محمد حجي (تنسيق وتحقيق). موسوعة أعلام المغرب، ج 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1 ، 1417هـ/1996، ص 2483

22- البزاز، مرجع سابق، ص ص 398، 399 . نقلا عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط. د 2349

23- نفسه، ص 399

24- إبراهيم الرياحي:من علماء وصلحاء تونس، ولد بتستور ثم انتقل إلى تونس العاصمة للدراسة بها، شهد له شيوخه ومعلموه بالتفوق، تولى التوثيق والخطابة والتدريس والفتوى كما اشتهر بشعره القوي وكتابته عدة حواشي في الفقه والأدب. توفي الأربعاء 28 رمضان 1266هـ موافق 7 أوت 1850. انظر:

- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج4، ج7، ص ص 73، 81

25- نفسه، مج2، ج4، ص 130

26- رواه مسلم والبخاري

27- رواه مالك في الموطأ. انظر: مالك بن أنس ، الموطأ، تحقيق سعيد محمد اللحام، دار إحياء العلوم، بيروت، ط4، 2002، ص 678

28- رواه البخاري

29- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مجلد2، جزء 4، ص 128

30- عبد الحق شرف، مرجع سابق، ص ص 160، 161

31- البزاز، مرجع سابق، ص 400. و ص 405. وفي الحقيقة هذا هو موقف أغلب علماء المغرب الأقصى أيضا، فالمؤرخ المغربي أبو القاسم الزياني(1734-1833) الذي تعرض للكرنتينة في ميناء تونس في طريقه للحج عام 1794 رفض ذلك بشدة واشتكى الأمر للباي التونسي بقصيدة هجائية لاذعة رمى فيها منفذيها بالابتداع في الدين وبمذهب الاعتزال والجهل. من هذه القصيدة نورد الأبيات التالية منها، لأن مضمونها سيتكرر لدى باقي العلماء:

سنّ الكرنطينة الشنعا ببدعته في بلدة هي دار للعلم و الأدب

يحسبها بصميم الجهل منجية يقي بها النفس من سقم وعطب

آه على تونس الخضراء يسود بها معتزلي بلا دين ولا حسب

يدس في الدين أشياء محرمة فقلما يسلم الجربى من الجرب

ظنّ الخبيث بأن الموت يفلته وما درى أنه خلفه في الطلب

- انظر: أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، دط، 1991، ص ص 364، 365

32- أحمد بن خالد الناصري: ولد السبت 12 قعدة 1250 بسلا، علامة إصلاحي وكاتب ومؤرخ له مؤلفات كثيرة أهمها: الاستقصا، زهر الأفنان من حديقة ابن الونان (شرح للشمقمقية)، طلعة المشتري في النسب الجعفري، تعظيم المنة بنصرة السنة، الفلك المشحون من نفائس تبصرة ابن فرحون (لم يكمله)، كشف العرين عن ليوث بني مرين أشعار وقصائد عديدة...انظر:

- عبد القادر قوبع، الحركة الإصلاحية في منطقة الحماية الفرنسية في المغرب الأقصى بين 1912-1954، دكتوراه في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر 2، 2014، ص 37

33- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1955، ص 182

34- عبد الله بن الهاشمي بن خضراء السلاوي: قاض وفقيه مغربي له حاشية على شرح بنيس على عرائض

مختصر خليل، . تولى قضاء مراكش ثم فاس. توفي لاثنين ثالث محرم 1324هـ. حجي، مرجع سابق، ج8، ص 2843

35– الناصري، مصدر سابق، ج5، ص 183

36– مثل أحمد باي الذي أشيعت عنه مغادرته لتونس خوف الإصابة بطاعون 1850، وصرامته في تطبيق الكرنتينة فكان يبخر الرسائل الواردة اليه دون لمسها ثم يقرؤها وتحرق مباشرة، بل إنه استقبل الوفود الديبلوماسية بحواجز. وروى المؤرخ ابن أبي الضياف بأنه قد خاطبه قائلا: « قد بالغنا في الخوف» و:» من المقدور لا يغني الحذر»، وقال بعضهم أن هذا الأمر لم يكن في الملة الإسلامية. للمزيد انظر:

– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4. ص 130

37– الناصري، مصدر سابق، ج5، ص 181

38– محمد بيرم الثالث: ولد أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بيرم (محمد الثالث) في 27 ربيع الأول 1200 درس على والده وغيره من العلماء، برز في علم البيان والمنطق، درّس في المدرسة الباشية والجامع الأعظم والمدرسة العنقية، تولى الخطابة والفتوى على المذهب الحنفي كما ترأس المجلس الشرعي. توفي ليلة الأربعاء 27 ربيع الأول 1259هـ. انظر:

– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4، ص 55

39– استند عمر بن الخطاب لرأي عبد الرحمن بن عوف الذي روى له حديث « ...فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه... « حيث عاد بجيشه من منطقة سرغ (قرية في وادي تبوك)، ولم يأخذ برأي أبي عبيدة بن الجراح الذي استنكر على عمر فراره من قدر الله فقال له عمر: « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفرّ= من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت =الجدبة رعيتها بقدر الله؟». رواه البخاري في كتاب الطب ومسلم في كتاب السلام. وروي أن عمر بن الخطاب قال أنه يفضّل بيتا في ركبة (منطقة نائية بين مكة والعراق أو وادي من أودية الطائف) على عشرة بيوت في الشام يقصد أنها منطقة موبوءة لا تضمن الصحة ولا طول العمر. انظر:

– مالك بن أنس، الموطأ، حديث رقم 1655، ص ص 686، 687

40– محمد الطيب الرياحي: هو ابن شيخ الإسلام إبراهيم الرياحي، تولى الخطابة بجامع أبي محمد الحفصي والتدريس بالجامع الأعظم، توفي الأربعاء 23 ربيع الأول 1266هـ موافق 6 فيفري 1850 بمرض الكوليرا. انظر: ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج 7، ج 4، ص 75

41– نفسه، مج2، ج 4، ص ص 128، 130.

42– عبد الله محمد بن سليمان المناعي: من أولاد مناع من دريد ارتحل لطلب العلم إلى تونس حيث درس على علمائها ثم انتقل إلى فاس وأخذ التصوف عن أحمد التيجاني. درّس بالجامع الأعظم وتولى الشهادة والتوثيق، عُرف بتبحره في الفقه. توفي 1247هـ حوالي 1831.

– ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4، ص ص 164، 166

43- محمد الحداد، حفريات تأويلية في الخطاب الإصلاحي العربي، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 2002، ص ص 128، 130

44- ابن أبي الضياف، مصدر سابق، مج2، ج 4، ص 129

45- القشاعي، مرجع سابق، ص 230. أما عنوان رسالة مصطفى الكمال فقد طبعت بالعنوان التالي:

musu – loi la avec rapports leurs dans quarantaines les et Médecine la 1896 .mane

46- قام المحقق الجزائري محمد بن عبد الكريم بتحقيق هذا العمل.

47- إيفون تيران، مرجع سابق، ص ص 344، 345. ص ص 356، 357

48- نفسه، ص 366

49- إيفون تيران، مرجع سابق، ص 380